الجسد والروح

والانانية وتحقيق الذات

لعلي أدهم

يعزو بعض الاخلاقيين قصور الانسان عن بلوغ الكمال واستجابتهُ لداعي الهوى وقابليتهُ للسقوط الى تغلب الجانب الحسي من الانسان على الجانب الروحي . وذلك لان الشهوات تعتاق تقدم الروح وترصد لهُ الموانع والعقبات . ولو تخلص الانسان من اسار الجسد لاتسعت حدود حياتهِ الروحية ورحبت آفاقها ولولا الجسد لما تكدرت الطبيعة الروحية ونقيت صافية لا يميل بها ميل ولا تستذلها شهوة

وتاريخ كل انسان حرب لا سلام فيها ولا هدنة لمقاومة طائش الرغبات وهوج العواطف بل هي حرب بين قوتين غير متعادلتين . احداهما كاملة الاهبة بصيرة بمواضع الهجوم ونواحي الضعف والاخرى ضعيفة الحول قليلة الحيلة . لان اجابة مطالب الجسد سريعة مباشرة وتلبية مطالب الروح عسيرة بعيدة المنال . وتقدير الخير والاحساس بجمال الحياة الروحية يحتاج الى رياضة شاقة وشحذ للذكاء وعزيمة مصممة وجأش رابط . والحياة تسير في بادىء الامر سيرها الطبيعي فاذا تمت وتهذبت بدأت سيرتها الروحية . فحياة الطفل او حياة القبيلة شبيهة بحياة الحيوان حيث تستبد الميول الجسدية قبل ان يعلن العقل سيطرتهُ ويتم تهذيب الروح . وما دام الامر كذلك فمن السهل ان يذهب بنا التفكير الى ان الانسان اذا اراد ان يسمو بالروح ويبلغ الكمال فلا مفرَّ لهُ من قمع الشهوة وتعذيب الجسد استنقاذاً للروح واحتفاظاً بحرية العقل . ومن هنا نشأت فكرة الزهد ونمت وترعرعت وازدهرت وبسطت ظلالها الكثيفة وسلطانها الضخم . واشتد الميل الى الانصراف عن مناعم الحياة ومفاتن الوجود واعتبارها رجساً من عمل الشيطان ينبغي لكل من اراد ان يفتدي روحه وينجو بنفسه الفرار من غوايته واتقاء شباكه . واكبر انتصار يحرزه الانسان في هذه الحياة الفانية هو التغلب على الجسد ونبذ مسراته واخماد حيويته

وانك لتلتقي بصور شتى وضروب مختلفة من هذا المظهر في مفترق الازمنة ومنثور الامكنة . وتصادفه قاعدة للحياة وقانوناً مطرداً في الهند بين البوذيين وعند بعض الطوائف المسيحية . وتاريخ الثقافة الغربية من القرن الرابع الى اواخر العصور الوسطى يرياك العجب العجاب من تأثير فكرة الثورة على الجسد ويكشف لك عن مظهر بروع من مظاهر تلك الحرب

الشعراء التي اعلنت على الاهواء والشهوات . وبريك كيف استشرى هذا الداء الوبيل وذاعت عدواه من مكان الى مكان دون ان يصده حاجز وكيف اذبل كل نضارة وعصف بكل جمال وشرّه كل متعة وكاد يقضي على الحضارة ويغير النفوس لولا نهوض احرار المفكرين وثورتهم على سننه وشرائعه

وعند ما نكرّ الطرف في نواحي الماضي ونتأمل هذه الحالة المفجعة يخالجنا الاسف ويحتوينا العجب . الاسف لهذه الضحايا البشرية التي ذهبت فريسة فكرة خاطئة . والعجب لان ذلك مخالف لكل المبادئ الاساسية التي تقوم عليها الحضارة لان الحضارة قائمة على الرغبة في اطالة الحياة والعناية بها وتنميتها وتخفيف ويلاتها وجعلها جميلة محبوبة . والكفاح المستمر بين الفرد والفرد والامة والامة سببه الحقيقي هو رغبة كل فرد في ان يزيد ثروته وينمي ممتلكاته المادية والروحية حتى يحصل على اوفى نصيب من الحياة بتقليل الآلام وتوفير اللذة . وكل مخلوق يحاول ان يعبّ من المسرات وينعم باللذات ويتملى من جمال الحياة ويحظى بالسعادة على حين ترى هؤلاء الصادفين عن الحياة يزيدون حياتهم ظلاماً وضيقاً ويفرّون من اللهو البريء والسرور الطبيعي فرارهم من الوباء ويأبون الا ان يزيدوا هذه الحياة الحافلة بالمتاعب والهموم بلاء على بلاء وكمداً على كمد

تلقاء هذه الحالة النفسية المخالفة لمقتضيات الحضارة ومطالب العقل يجب ان نتريث قليلاً لنرى علة نشوئها وهل هي جنون خيالي وهوسة عارضة ؟ وكيف وقع تحت تأثيرها رجال لا نشك في نبل نفوسهم وعظمة اخلاقهم وجلال تضحيتهم

منذ بدأ الانسان يأخذ باسباب الحضارة ويتدرج في الرقي وتشتد به الرغبة في المعرفة : معرفة نفسه ومعرفة ما حوله نشأ فيه عاملان . عامل الرغبة في طلب « السبب » او « العلة » وعامل الرغبة في فهم « الغاية » . فالانسان كلما صادفته صعوبة او عرض له مشكل محير جعل يسأل نفسه ما السبب الذي جعل الاشياء هكذا وما الغاية من وجودها ويتردد بين « من أين » و« الى أين » . وهناك فارق كبير بين هاتين المسألتين . لان المسألة الاولى مسألة منطقية وطلب حلها مسألة تلتقي فيها الآراء وبتفق عليها . أما مسألة الغاية فهي مسألة ادبية اخلاقية متوقفة على درجة الانسان من الرقي ونصيبه من الادراك . وقوانين المعرفة المسيطرة على العقل تتطلب أن يكون لكل شيء سببه ولا يمكن ان نتصور شيئاً ليس لهُ سابق سبب . ويمكن ان نتصور الدنيا حلقة متصلة من الاسباب دون ان يكون لها غاية ولكن هذا لا يرضي في نفوسنا الحاسة الاخلاقية لان الحياة بلا غاية في نظرنا باطل الاباطيل وقبض الريح وافتراض غاية للحياة لازم من النظر الفردي لان حياة الفرد مرة قاسية ومعرفة الاسباب لا تقنع القلب ولا تشفي الغلة ولا مفر لنا من ان نتساءل دائماً ما هي الغاية ؟

والبعض عند ما يعجزون عن ادراك هذه الغاية يستولي عليهم اليأس ويعتقدون ان الانسان

كالحيوان يأكل ويشرب ويلهو وغداً يطويه الموت ويفرقه العدم . فمن كان نصيبه من الحياة حسناً فنيهنأ به ومن ساء منها نصيبه فليتألم في صمت لانه لا حق ولا عدالة ولا غاية في حكومة الدنيا وما هي الا سلسلة أبدية من الاسباب

ولكن هذه الفلسفة اليائسة الحزينة التي تجرد الحياة من البهاء وتنفي عنها أسباب العزاء لا ترضي الكثيرين اذ لا يجدون فيها بلسماً لآلامهم ولا مرهماً لجراحاتهم لانها تترك الانسان على عجزه ووهنه وقصر حيلته منفرداً مع الشقاء يواجهه من ناحية الابد القصي ومن ناحية الازل السرمدي . وهنا يفرُّ الانسان من هذا الموقف الذي يصعب احتماله ويصور لنفسه وجود عالم غير هذه الدنيا وينقل محور اهتمامه من الجسد الى الروح . وهذا الجسد المقضي عليه بالعدم هو لباس الروح الخارجي الوقتي والروح لا تموت مع الجسد لانها ليست فانية مثله . وهذه النفس الخالدة هي الجديرة بالرعاية والخليقة بالتمجيد ولها مستقبل زاهر في عالم اصفى من هذا العالم وفي حياة اسعد من هذه الحياة وادي الدموع ومراح الاباطيل والخيالات . والآن وقد قسم الانسان نفسه الى جسم وروح يسترسل مع منطق هذه الفكرة حتى يرسخ في نفسه الاعتقاد بان الجسد هو عدو الروح الابدي وخصمها اللدود وانه هو الذي يقطع عليها سبيل الكمال المنشود بمطالبه الحقيرة وغاياته المسفة فعلى الروح اذن قهره واذلاله

وغير خاف ان المقصود بهذه الفلسفة هو العزاء والسلوى ولذلك لما تفاقمت بلايا الحياة وعظمت ويلاتها وضاقت سبل الفرج اشتدت الحاجة الى هذا العزاء وقويت الرغبة في اماتة الشهوة واجتثاث اصولها ويبدو ذلك واضحاً في العصور السوداء المظلمة عندما يغمر الانسانية الشقاء وتطغى عليها البأساء والنوائب دون ان تجد عاصماً

ونرى من خلال ذلك موقفين اقتضتهما متاعب الحياة وضروراتها . وهما موقفان متناقضان . الموقف المادي الذي يجعل الجسم كل شيء ولا يرى غاية للحياة سوى ارواء شهواته والاستمتاع باللذة حتى يحين الموت وينتهي حداً لهذه اللعبة السخيفة . والموقف الروحي الذي يعمد الى قهر البدن لتتخلص الروح وتقرب من الغاية الابدية

والمشكل الآن هو هل قضي على هذين العنصرين المكونين للانسان — العنصر المادي والعنصر الروحي — ان يظلا متضادين متعاكسين لا يطيب لاحدهما الحياة الا بسحق الآخر؟ اني أعتقد بامكان التوفيق بينهما وارجح ان الملاءمة بينهما ليست من قبيل المساومة الحقيرة او المحالفة الموقوتة بين الخصمين وانما هي وحدة داخلية لازمة لان العامل الروحي يستطيع ان يرسل اشعته في نواحي الحياة المادية ليطهرها ويسمو بها . وهذا التحالف لا يدنس الروح وانما يسمو بالجسد وعندما يكمل كل منهما الآخر يدنوان من الكمال . واذا لم اكن قد اسأت الفهم فان مثل هذا التوفيق بين مطالب الروح ومطالب البدن هو ما يرمي اليه شاعر الهند تاجور في كتابه القيم « سدهانا »

ومما يدعو الى التشكيك في الرأي القائل ان مصدر سقوط الانسان هو الجسد كون كثير من العيوب والنقائص الاخلاقية لا صلة لها بطبيعة الانسان الحسية مثل الكبرياء والطمع والبخل والانانية والحسد والانتقام . بل بعض اللذات الحسية تسمو الانسان لبواعث غير حيوانية . فالانسان قد يتعاطى المسكرات لينسى همومه أو ليستحث خواطره . وبعض العيوب الاخلاقية تقاوم الميول الجسدية وتفوقها فان البخيل قد يسبق الزاهد المستعبد في الحرمان وانكار النفس . ومن ثم تبدو لنا جلية ناصعة هذه الحقيقة التي كلف جهلها الانسانية الكثير من الآلام والعذاب والمسخ والتشويه وهي ان اخماد الرغبات الطبيعية لا يجيء بالغاية المنشودة . بل ربما جاء بنقيضها . وللرغبات الانسانية شأن كبير في الحياة الادبية والروحية . والجسد الذي نحاول قهره يمكن ان يصير اكبر نصير للروح في بلوغ مطالبها . واستغلال الميول والشهوات وتسخيرها في خدمة الغايات السامية قد يأتي باعظم النتائج في الحياة الادبية والحياة الروحية . وطبيعة الانسان الحسية وتركيبه العصبي وحواسه ومشاعره وشهواته ومراغبه وعلاقته بالوسط المادي ليست في نفسها شراً ولا خيراً وانما ملاك الامر على الانتفاع منها وكيفية التصرف بها . فاذا اعتبرت وسيلة من وسائل الروح فانها تجتلب المواد التي يمكن ان يحولها العقل افكاراً نبيلة ومشاعر سامية ورغبات انسانية . ونحن نعلم كل ما نعلم عن الطبيعة من طريق حواسنا فكل ما يسحرنا جماله ويبهرنا جلاله انما هو مواد زودت الحواس بها العقل ليصوغها . ولا يغرب عن البال ان الحياة الادبية الروحية اساسها الحياة الطبيعية المادية . فالحياة العاطفية مثلاً التي يحيا فيها الفرد في حياة غيره اساسها الخارجي قائم على لبانات عضوية محضة . ولكنه كما يحيل الفنان الاحجار طرقاً فنية رائعة وكما تخرج قوة النباتات الحيوية من الثرى الوضيع الزهرة والفاكهة فكذلك حياة الارواح تحيل النباتات والشهوات أهواء نقية وعواطف رقيقة يقوم عليها الشعور القومي والعواطف الانسانية التي تتكون منها لحمة حياتنا الاجتماعية وسداتها

وليست الحياة الروحية الحقة هي الحياة العاطلة من الميول والاهواء فان انبل الطبائع الانسانية وابطال التاريخ ورجال الوطنية واحباب الانسانية كانوا جميعاً من ذوي الاحساسات الحادة المرهفة . بل ان جانباً كبيراً من عظمتهم كان مصدره شدة نبض العاطفة الانسانية في نفوسهم ووفرة احساسهم . وليست الاهواء العارمة والميول العنيفة هي سر عظمتهم وانما سرها هو ان المبدأ الادبي وقوة الارادة والنزعة الروحية مكنتهم من السيطرة على هذه الاهواء المحتدمة وتحويلها الى قوة في خدمة الغايات العليا . وسر القوة على تحقيق المثل الأعلى للطبيعة الانسانية كامن في الارادة لا في سحق البدن والاسراف في تعذيبه . والارادة الخيرة ترى سعادتها في العمل على ادراك هذه الغاية السامية كما ان الارادة الشريرة هي التي تجد لذتها في الغايات الشخصية المحصورة والمآرب الوضيعة . والصلاح

الحق هو التحقيق الصادق للنفس . والتساد العضال والسقوط المزري هو التأكيد الزائف لها واعتبار تحقيق الذات اسمى غاية في الحياة ليس معناه ارجاع الخير الى البواعث الانانية ومخالفة فكرة نزاهة الخير ونقاوة الفضيلة ونقض الرأي القائل بأن انكار الذات هو اسمى ضروب الفضيلة وان تضحية الشهيد وفكران التمديس لذاته وتنامي البطل لمصلحته هي اسمى اعمال الانسان . ولا مفرّ لازالة اللبس من التفريق بين الانانية وتأكيد الذات لانهما مختلفان كل الاختلاف ومتناقضان اشد التناقض . وقد اهمل بعض الاخلاقيين هذا التفريق وقالوا بنظرية الانانية العامة وهي التي تركز كل اعمال الانسان دقيقها وجليلها وشريفها ووضيعها على اساس الانانية وتردها الى بواعث المصلحة ودوافع اللذة . فكل عمل يعمله الانسان انما يبتغي به المصلحة ويلتمس من ورائه اللذة . وفعلنا الشيء معناه انما نستريح لآرائه ونستعذب القيام باعبائه . ونفس الاعمال الشاقة المؤلمة انما نباشرها لاننا نستهين فيها بالآلام ولذة الاستمتاع ترجيح حرقة الألم . وقد نتناول الجرعة المرة من الدواء لان لذة الاستمتاع بالصحة اعظم من تجرع المرارة . وقد تطيب نفوسنا لتحمل المتاعب في سبيل من نحب . فالوطني الذي يشقى لاجل مبدأ او الشجاع الذي يقدم على التضحية والشهيد الذي يجود بحياته بسبب عقيدته يستشعر كل منهم لذة تفوق الألم الدامي الذي يقاسيه وما دام السرور يدخل في كل باعث انساني وما دامت التضحية نفسها دثاراً لامتاع النفس فالانانية اذن ثابتة وطيدة . ولكن كل هذا ناشيء من الخلط بين الانانية وتحقيق الذات . وقد يستخفنا السرور لتحقيق رغبة ولكن يلزم ان تكون هنالك غاية مطلوبة قبل ان نستشعر اللذة في ادراكها وليس مما يقلل من قيمة الخير ارتياحنا لعمله كما ان الولوع بالاسادة والغرام بالشر من اتم الدلائل على ضعة النفس

ولكن اذا كانت كل اعمال الانسان هي تحقيق للذات من بعض الوجوه فكيف يكون تحقيق الذات مقصوراً على الاعمال الخيرة ؟ والجواب على ذلك ان ما ينبغي تحقيقه هو النفس الفردية . وليس معنى ذلك ان كل عمل يتجه الى مصلحة الفرد يسمى انانية لانه اذا كان المقصود بهذا العمل ان ينمي الفرد استعداده ويكمل من ثقافته ليكون اقدر على النهوض بالغايات الكبيرة والاعمال الباهرة فان هذا يعد من اشرف الاعمال . واقل الناس نصيباً من الفهم واضألهم عملاً يمكن ان يسمو في ضوء الواجب وعلى هدى الحب ولكن لا خلاف في ان السياسي المدرب والشاعر العبقري والفنان الموهوب والخطيب المصقع يمكن ان يقوم كل منهم بقسط اوفر وان يقدم تضحيات اغلى قيمة وأبعد اثراً . وكلما عمل الانسان على النهوض بعقله وجسده وتوفير معلوماته وتوسيع ثقافته وبذل الجهد في خلق فردية جيلة منسجمة فانه سيقوم بأجل خدمة لحياة الفكر والروح ويتصل بحياة المجتمع وحياة الشعب عامة وحياة الانسانية جمعاء والتوفيق بين نوازع الروح ومطالب البدن هو الاساس الذي تقوم عليه هذه الحياة الانسانية العالية